زكى المحاسنى
نابغة من دمشق

للاستاذ وحيد الدين بهاء الدين
أديب السيرة والنقد ـ العراق

حسب الادب السورى الحديث ان يغدو الدكتور زكى المحاسنى أحد رواده الناهضين فى جيلنا الحاضر القلق، انه ما انفك يواصل ترحاله فى كل مسار ومدار، ماكف عن ارتياد شتى الآفاق، واستشراف التيارات والاتجاهات تطلبا لابعادها واصدائها، التقاطاً لانوارها وخطوطها، وعيا لمفاهيمها ومضامينها وبحثا عن جمالاتها وخصائصها، تغريه بذلك كله نزعة مكينة تحتضن التالد والطارف، وروح مجنحة تؤثر التحليق والانطلاق وفكر مشبوب يستجلى الحياة ما فيها ومن فيها ويستقطب المجتمع ما له وما عليه.

من هنا ما فى اعتزاز الادب العربى بسورية برجل تجلت فيه سمات النبوغ، وذكاء القلب ونقاء المعدن كالمحاسنى من دلالة،

obeikandi.com

حيث أوسع له وأحله المحل الحرى به انسانا واستاذا، باحثا وشاعرا، مفكرا ومحققا.

كفاه انه من نوابغ دمشق، ومن بناة مجدها الادبى الاصيل على مدى طويل ناهز الاربعين سنة. ان التاريخ يعرف كيف ينصفه، وكيف يقدر الرسالة التى أداها وقد قاد قافلة الأدب الحديث رائدا طليعيا الى جانب عشرائه وزملائه يرتقى معهم سلم المجد، ويدعم النهضة الجديدة، وقد ازدهى به عمق الرؤية وشوق الفن وأمانة الغاية.

ومن أجل هذا كله نفح المحاسنى الخزانة العربية بآثارٍ بارزة هى ألوان من الثقافة المعاصرة فى مجالها وفحواها من فكر وشعر، من بحث ومقالة، من نقد وملحمة ومن خاطرة وسانحة.

المحاسنى فى انتاجه يتفجر عن طاقات ابداعية ضخمة، ترفدها الحياة بمآتيها ومعطياتها، ويخصبها التمرس وتجربة الذات ويطلقها الزمن عبر سيره ودورانه.

إنه يحاول مخلصا تصوير الماضى وإحيائه بتجسيد مضمونه الانسانى، ليصله بالحاضر المائج بالثورة الفكرية، بالتحول الاجتماعى، وبالتكالب المادى لبلوغ المطامح الجائلة فى اغوار الوجدان العربى، ايماناً منه بضرورة نفض غبار التخلف عنها، واسقاط السلبيات ومعانقة التجدد والتطور، ثم إرهاصا بأرضية ثابتة لغد أعم جودا وثراء وأعظم بهجة وجدوى، غد يحبو الينا بحكم ناموس الوجود. حتى انك لترى المحاسنى فى مؤلفاته مؤكدا من جهة

على اصالة العرب الحضارية ورفضهم التبعية والهزيمة الفكرية.. ومعبرا من جهة أخرى عن الشخصية الشرقية الاسلامية ذات المقومات الخاصة والمتميزة برصيدها الروحي والعقلي، وبايثارها لهذا الرصيد. لانه طالما رفد حضارة الغرب وتمازج معها قصد التأثير فيها والتأثر بها.

وأحسب المحاسني على حق في قوله: «واذا كان شعر الحرب في الادب العربي هو اقوى ما نظم الشعراء على ترادف الاحقاب فذلك لأنه يتصل بالأمة فيضم مجد ماضيها الى عزة حاضرها. أنه وحده سجل فخرها، وعنوان بأسها وأناشيد بطولتها».

يتعمد المحاسني هذا كله لاستغلاله كآلة دفع يحض بها قومه تبصرة لهم وتذكرة بأن لا مندوحة عن السير في هذا الدرب الطويل الشاق.. لتجديد الثقة بأنفسهم وتوطيدها على توالي الأيام، ولاعتماد العلم والعمل أساسا في التنظيم والابداع ولالتماس بواعث المجاراة للامم الباغلة السمو الحضاري، وذلك حفاظا على كنوزهم وذخائرهم وتحقيقاً لما يخالجهم من الطموحات والامنيات.. وهي مقياس التشرف والاطلال. معنى هذا ان المحاسني ديدنه، أولا وآخرا، وحدة الهدف بعد وحدة الفكر، فقد قال: ان فكرة«الادب للادب» لاتدخل في اعمالي الادبية، وان عديد الكتب التي الفتها حتى الآن لا يقوم الا على التربية الاخلاقية وبناء الجيل العربي بالمثل العليا».

مجال القول في المحاسني موسوعيا مثقفا.. يعاني تجربة الفن الشعري، ويخوض مهامة الابحاث الجادة ويزاول مختلف ضروب

obeikandi.com

التفكير والتعبير.. ذو سعة، يقتضى منى ومن غيرى تفرغا وانكبابا لا أملك من اسبابهما ما يعيننى على ذلك، اذ تتعذر على الاحاطة الكاملة بأعمال المحاسنى الادبية، واشباعها دراسة وتحليلا، خشية ان يفقد النهج العلمى، الذى لا أحيد عنه، عناصره، اضافة الى كونها مجانفة لمهمة التركيز التى اتوخاها فى كتاباتى.

على ان هذا لا يحول دون الزعم بأننى أوليت الجانب الملفت للانتباه فى اعمال المحاسنى الاهتمام الخاص الحقيق به.

فالتركيب الفنى لشخصية المحاسنى الادبية يمكن ان يتحدد فى ثلاث نقاط، تلك هى رسائله الجامعية، ودراساته الادبية وموهبته الشخصية فى الشعر واعداده للملحمة العربية.

ومن الفضائل العلمية التى يتحلى بها المحاسنى فى رسائله الجامعية الزامه نفسه بقواعد صارمة من المنهجية فى التأليف، والتجرد فى البحث، والامانة فى القصد والاشارة الى المصادر.

على ان اعتماده الاسلوب الموضوعى، وركوبه المركب الخشن فى رسائله، وان كان عملا صعبا يتطلب المثابرة والجلد، فانه لا يتهاون فيه، ولا يتعاجز عنه ولا يستهين به. قال فيه «شاعر الاهرام» محمد عبد الغنى حسن: «... وحين يسلك الدكتور زكى المحاسنى المسالك الوعرة فى التأليف يذهب مذهب الاعتدال والنزاهة فى الاحكام، فلا يجور أو يتسر الأحكام، أو يتابع فى الآراء من غير تحقيق، ولكنه يقرأ ويحقق ويوازن ويزن ويحكم بعد اقتناع واعتقاد».

ومن خلال رسائله هذه، ذات الطابع الاكاديمي البحت، يتجلى لنا مذهبه كباحث علمي ومحقق اصيل، ويتضح حياده الفكرى في معرض الآراء والاحكام المتعددة، المضطربة، كذلك ترز قدرته الفنية في التمهيد والتنسيق والاستقصاء.

فانما هو يغربل الحقائق التي يلتقطها، ويحلل الوقائع التي يتلمس خطوطها بأمانة وثقة ثم يربط المقدمات بالنتائج بخيط دقيق يكاد لا يستبين، مؤلفا ما بين اطراف المادة المبعثرة ومتدرجاً من التفصيل الى التركيز.. ومن التركيب الى التحليل.

ولئن كان من المسلمات ان عبد الوهاب عزام علامة جليل في نهضتنا الفكرية الحديثة، وهب حياته للبحث عن العلم في أنصع مظاهره وانبل غاياته وقصد الاصالة والامانة في ما ألف وانتج، فاننا لندرك في الحال الى أي مدى تتبع خطاه تلميذه المحاسني على البعد والقرب، مقتفيا أثره، مغترفا من ينبوعه ثم معترفاً بفضله. أوليس هو القائل: «وتتبعنا عزاما رائد الادب والبيان» في مقالاته التي كان ينشرها في «الرسالة» و«الثقافة» كل اسبوع وكأنه، على البعاد، من اساتذتي الذين علموني في دمشق وكان لهم فضل التوجيه في حياتي الادبية» ؟ ثم أليس هو القائل أيضا: «وحين التقيت بالدكتور عزام كنت كحافر الارض زمنا حتى بلغ الى مواقع الكنز فيها» ؟

ومن هنا جاءت رسالته «شعر الحرب في ادب العرب» ـ وقد نال بها درجة الدكتوراه ـ منطوية على عناصر الريادة والاصالة والجدة، لان المحدثين لم يطرقوا هذا الموضوع ـ على حد قوله ـ من

قبل. وفي التقدمة القيمة التي كتبها الدكتور عبد الوهاب عزام لهذه الاطروحة وقال: «وقد عكف فيها ـ أى المحاسني ـ عكوف الباحث المخلص المتثبت، الذى لا يقنع بما دون الغاية، ولا يسكن الى الدعة ولا ينوء به النصب والدأب».

اما المحاسني نفسه فيقول: «وقد اتخذت لبحثي النهج العلمي في التبويب والتفصيل والترقيم، معتمدا على التحليل والتمحيص حيناً وعلى المقارنة والنقد حينا آخر.. لاستكشاف الظواهر الادبية الحماسية وربطها ـ اذا دعا الامر ـ بأسباب السياسة والتاريخ».

والمحاسني مجدد على مستوى الادب الصحيح.

ان في قيامه بدراسة بعض الشخصيات الشهيرة في تاريخ الادب، كأبي العلاء المعرى وأبي الطيب المتنبي وأبي نواس من القدامى، وكأحمد أمين وعبد الوهاب عزام وابراهيم طوقان ومن اليهم من المحدثين، معنى من معاني الوفاء الانساني.. ودلالة من دلالات تخليد الثقافة العربية في آفاقها واعماقها، في عظمتها ومثاليتها، لا لشيء إلا لأن هاتيك الشخصيات افنت ذواتها وجندت قواها العقلية والشعورية من اجل تعميق القيم الحياتية والمبادئ الاجتماعية والحضارية التي آمنت بها الذات العربية واستمدت منها روح يقظتها ومفتاح شخصيتها ومهماز بقائها على العصور والاجيال، كذلك سخرت امكاناتها وملكاتها في سبيل تطوير الاساليب الادبية والمقاييس الفنية لتعمل تأثيرا وتوغلا في مجرى الاذهان ومسارب الاحاسيس..

ولتبقى قاعدة عريضة يلتقى على صعيدها القديم والجديد، الماضى والحاضر.

وكيف لا يعير المحاسنى الشاعر اهمية لشاعر كالمتنبى وهو، كما يقال، ابو المعانى، وهو ايضاً أعظم شاعر فى سمو الفكر وقوة الشعور، انجبته الامة العربية مفردا فى جميع عصورها الادبية المتطاولة؟

دع كل صوت غير صوتى فاننى
أنا الطائر المحكىُّ والآخر الصدى

وأما أبو العلاء، الذى تناوله المحاسنى فى أطروحته التى نال بها درجة الماجستير، فحسبه انه الرائد الذى أدخل الفلسفة فى الشعر العربى باقرار من تاريخ الادب، والذى نقد المجتمع فى أفكاره واشعاره ذلك النقد الرائع العميق. اجهاضاً لترّهاته وسقطاته، وايجادا لمناخ الحق والعدل فيه ثم نهوضاً بأفراده المنتمين الى الجماعة الانسانية. لذا يقول المحاسنى: كذلك أجببت أبا العلاء على ريّق الشباب، فأخذت بكتبه مدارسة وممارسة. وخطوت الشباب، فاذا أنا بضفاف النيل أُكتب عن شاعرى. ولئن سبقنى الكتاب، على كثرتهم، فى التصنيف عنه لداعية ألف عام مرت على مولده أو لسوانح تسنح لهم فى أدب هذا العبقرى الشآمى الذى خلد على الزمان فما واحد منهم وقف كتاباً على نقده للمجتمع، وهل أبو العلاء الا ناقد المجتمع فى كل شعره وعميم نثره؟!.

ثم من الذى يتجاهل أبا نواس، داعيه الثورة على الاطلال الدارسة وداعية الحياة فى تطلعاتها، فيه يقول المحاسنى: «لقد كان هذا الكتاب من بواكير أعمالى الادبية منذ ثلاثين عاماً، يوم لم يكن أحد من المعاصرين قد تقدم بدراسة جامعية ومنهجية لشعر ابى نواس وأدبه ؟» .

والمحاسنى، كأديب ملتزم داخلياً، متصف بدقة الحس ويقظة الوجدان، لابد، أن يتجاوب مع الاحوال التى تحيط بشخصه، ومجتمعه وأمته، وان يتأثر بمن يشاطره مشاعر الوفاء والاخاء ويساقيه كؤوس العلم والمعرفة:

ومن هنا كان كتابه «طوقان: شاعر فلسطين» وليد تفاعله مع الأحداث المفجعة التى رافقت قضية العرب الاولى. فقد قال:«واذا كان شعر طوقان قد ارتبط بقضية بلاده قبل النكبة وبعدها.. وعبر فيه عما لابسها قبل احتدامها فقد رأيته جديرا بالدراسة والتمحيص» .

بينما كتاباه «أحمد أمين» و «عبد الوهاب عزام» هما عصارة زمالة فكرية.. وتلمذة، أو صداقة روحية استغرقتا شطرا من عمره واستوعبتا، بالنسبة اليه، وجوده الذاتى والفكرى. وقد صور هاتين الشخصيتين، الرائدتين بلمساتهما، تصويرا واقعياً.. وعبر عن مبلغ تعلقه بهما تعبيرا أمينا. مثلا يقول عن أحمد أمين: «.. أما أحمد أمين فقد رأيت صورته فى كتابه «حياتى» كما رأيته فى العيان والممارسة، ولم أجد الشخص الذى فى الوجود مخالفاً للشخص

الذى صور نفسه على الورق.. بل لمست فيه تواضع العلماء والبعد عن التبجح والغرور».

دراسات المحاسنى للشخصيات تراوح ما بين الطريقة الكلاسيكية البحتة والطريقة التحليلية المعاصرة. فاذا كان كتاباه «المتنبى» و «طوقان: شاعر فلسطين» يخضعان لأسس الطريقة الكلاسيكية فان كتابيه «أحمد أمين» و «عبد الوهاب عزام» يختلفان عنهما من حيث التعليل والتفصيل، والاستقراء والاستنتاج، ثم يحويان شيئا غير ضئيل من عناصر الخلق والصدق. ولعل لعلاقة المحاسنى الوطيدة بالرجلين دخلا كبيرا فى ذلك كله. لننظر ما يقول المحاسنى بهذا الصدد: «.. وهكذا كنت أقرأ «أحمد أمين».. فأتخيله فى شكله وسمته.. وأستخرج صورا حية من عاداته وصفاته من طول التنقيب فى كتبه ومقالاته قبل أن أُعرفه من قريب.. وتجمعنى اليه مودة فكرية وتبعات حكومية».

أما كتاباه الآخران «أبو نواس» و «أبو العلاء ناقد المجتمع» فتتمثل فيهما الطريقة المعاصرة بالرغم من كون الاول صادرا قبيل الاربعينات وبعدها، الا أنه دليل ساطع على ملكة المؤلف الفذة فى البحث والمقارنة والدراسة». لقد اصاب الدكتور فوزى عطوى كبد الحقيقة حين عرّج على المحاسنى فى كتابه «أبو نواس» بقوله: «.. وقد انعكس فى الكتاب أثر الثقافة العالية التى يتمتع بها الدكتور زكى المحاسنى، وذلك من خلال الدراسات المقارنة التى أجراها ولو بصورة عاجلة».

وللمباحث الفكرية قدر كاف في آثار المحاسني، استهل بها اهتماماته الادبية الاولى معالجاً اياها بحصافة العالم.. وحساسية الاديب وذوق الفنان، تحديدا لملامح الادب المعاصر وتطوراته واصدائه.. وتسمية لقادته من شعراء وادباء ممن شيدوا صرحه الشامخ، القائم أبد الدهر.

ففي كتاب «نظرات في أدبنا المعاصر» يرصد المحاسني نهضة الادب الحديث في ما واكبها، وما اشتجر حولها وما تجدد فيها، من خلال الظروف الموضوعية للاقطار العربية التي بلورت هذا الادب واكسبته مقوماته الخاصة.. واسفرت عن القيم الجديدة المتأثرة بالمثل الحضارية، وبمدى قدرة هذا الادب على التفاعل مع الاحداث.. واستيعاب قضايا الانسان العربي في جميع البلدان والاعراب عنها بطلاقة واخلاص.

على ان الشيء الحرى بالانتباه هو ان المحاسني، وان كان مؤمناً في قرارة نفسه بالادب العربي بسبب خصائصه الذاتية والانسانية، فانه يرى أن هذا الادب غير جدير بالارتقاء الى المستوى العالمي.. أو الى درجة القياس به.. لافتقاره الى مياسم العالمية في الاصالة والعمق والجدة والتأثير. انه ليقول: «ان الحقيقة، التي هي بغية كل باحث، تقول: «ليس ما لدينا من آثار ادبائنا، شيوخا ومحدثين، الا القليل الضئيل مما نستطيع ان نقدمه الى جنب الادب العالمي».

ولكن هذا ليس بمانعه من الاعتراف بأنه كان لنا أدب عالمي،

ولكن اين هو الآن؟ بل اين نحن منه... ولم لم نصله بالحاضر الراهن؟ لقد تخلفنا وتخاذلنا، وغيرنا ما بأنفسنا، مستمرئين نشوة الخمول والخدر، حتى غدونا حيث نحن اليوم.

«لقد كان لنا ادب عالمي في العصر العباسي والاندلسي، وكان لدينا أفذاذ فيه عالميون. وحين نذكر الجاحظ، وأبا الطيب المتنبي وأبا العلاء المعري نعتز بهم في كل عصر».

ومع هذا كله فالمحاسني لا يكفر بالضمير العربي ولا يفقد امله، معتقدا أما بالامكان اللحاق بالركب العالمي في ميدان الادب والفكر اذا عرفنا كيف نقتحم آفاق هذا الميدان، وكيف نطبع ذواتنا بطوابع العصر وتحولاته، والحضارة ومبدعاتها والواقع ومتطلباته، ثم اذا عرفنا كيف نصور تجاربنا وما تعانيه نفوسنا. وعبرنا عن أصالتنا الانسانية وتراثنا الحضاري وبالارتفاع الى ذروة الفن الحقيقي والفكر الواقعي ليتميز أدبنا العربي المعاصر بالعالمية في المعنى والمبنى.

والمحاسني المؤمن، يصوغ الحياة الأدبية بكل مناحيها وأهوائها على اساس من الدين.. متمثل في «القران الكريم» و «الحديث». إنه يدعو الناس إلى الالتزام بالقيم الاسلامية التي أخرجت البشرية التائهة من ظلام الجهالة الى نور الهدى والرشاد.

إذ يرى أن الادب لايمكن أن يزدهر الا في ظلال الدين، فيقول: «لا يعيش الأدب منضوح البيان بالسحر الحلال وفصل الخطاب إلا في حمى الدين، ولقد عرفت الأمم القدامى في حياة الشعر والفن تراتيل العبارة في طقوس الدين».

صحيح ذلك.. ما دام الأدب هو النتيجة الطبيعية لدراسة الدين.. وكشف خصائصه وحقائقه بعد النفوذ الى أغواره وجذوره وترك ما لا صلة له به. يتجلى ذلك كله فى كتاب المحاسنى «الادب الدينى»، الذى ينتظم دراسات أدبية فى منتهى الروعة والتوافق الفكرى.. لا لشيء إلا لانه اعتمد «القران الكريم» و «الحديث» ـ كما نوهت ـ أساساً فى طريقة تناوله الموضوعات الكونية والوجودية، والقضايا الفردية والبشرية فى الجاهلية والحياة المعاصرة، علاوة على المذاهب الأخلاقية والأدبية فى ضوء التطورات الحديثة.. وعلاوة على قصص بعض الشخصيات الاسلامية التى غيرت وجه التاريخ وأرهصت، فى ظهورها، مفاهيم لم يكن للمجتمع العربى قبل بها. ومن مطاوى هذا الكتاب: «التجسيم النفسى فى القرآن الكريم»، «الوجودية المذهبية فى القلق»، «من آثار القرآن فى الآداب العالمية»، «شعر الجهاد فى ادب الاسلام»، «الفلسفة الاسلامية عند ابن تيمية»، «الرسول يصنع وحدة العروبة». وفى هذا الفصل الاخير يقول: «... ولا شيء يؤلف بين القلوب كالسلاح بين المجاهدين، فان اجناد الرسول وقواده كانوا كتلة واحدة كأنهم البنيان المرصوص، فخرجت هذه القبائل من معركة بدر تجرر اذيال النصر وتخفق فوق رؤوسها رايات العزة بظفر الرسول وصحبه. وقد تركت هذه المعركة فى ادب العرب القديم شعرا كثيرا قيل فى الفخر والرثاء.. مازال الى اليوم يهيج كامن العظمة فى العروبة على الزمان».

وفى نهاية المطاف ينبغى ان نقف على ما هو واقع.. نشداناً للحقيقة العلمية التى عمل المحاسنى من أجلها ولأجلها.

إن المحاسنى، وان تمسك بنظرية «تين» فى البحث والنقد، وهى التى تعنى بدراسة بيئة الكاتب أو الشاعر وظروفه الموضوعية.. وبتحليل العوامل المؤثرة فى تكوينه وثقافته، فانه كمجدد، يؤمن بمبدأ التطور والانفتاح على العالم، لايغلق أبواب المباحث العلمية التي يعالجها.. بل يفتحها على مصاريعها ليجلوها من يشاء من بعده وبما يشاء. ومن طبيعة الاشياء أن يظل باب العلم مفتوحا، هذا هو الصحيح.

على أن أسلوب المحاسنى تكتنفه بوجه عام، استطرادات، ولعله بهذه الظاهرة التى شملت حتى رسائله الخاصة متأثر بالجاحظ، الرائد الذى اختص بهذه الخصيصة الفنية الفريدة. ثم هو ـ أعنى المحاسنى ـ، فى طريقة معالجته الموضوعات يستعير من القديم ثوبه ومن الحديث روحه، عملا بقاعدة الجمع بين الاول لأصالته وفخامته وبين الثانى لطرافته وجدته.

وبسبب من سعة ثقافة المحاسنى.. وتنوع روافدها العربية والغربية.. يتولى مهمة الموازنة ما بين الكتاب والشعراء فى الشرق والغرب ممن رافقهم فى رحلة الفكر، وذلك من خلال تفسيره لبعض الظواهر الأدبية المعينة، مع ما فى الامر من تعزيز لآرائه وافكاره، وافصاح عن غزارة علمه وتناهى افقه، كما فعل حين وازن مابين مالتوس وابى العلاء المعرى(١)، وما بين رامبو وأبى نواس(٢) .. وما بين فيكتور هيجو واحمد شوقى (٣) الخ...

(١) انظر «ابو العلاء ناقد المجتمع». (٢) أنظر «النواسى شاعر من عبقر».
(٣) انظر «نظرات في ادبنا المعاصر».

هذا والبعد الذاتى يترامى أمامنا واضحا كلما توغلنا فى دراسات المحاسنى حيث يدخل طرفاً فى الموضوع، فيبدأ بالتحدث عن ذاته فى مساق الكلام، حديثا تقائيا مستطابا، محاولا ان يربط، بينه وبين أسباب الموضوع الذى يتناوله بعامل فنى.

تفسيرى لهذا كله هو أن المحاسنى يندمج بما يعالج اندماج المستغرق.. ليضفى فى ذلك بعداً ذاتيا. والاديب الصادق يعبر، عبر سطوره ومؤلفاته، عن تجاربه ومعاناته بعفوية لحمتها الاصالة.. وسداها الاخلاص. واما شعره فان ديوانه الذى سينشر قريبا هو الذى سيتحدث عنه ويدل على فيض قريحته وقيمة محتواه.

***

obeikandl.com